مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

مختبر الحوار بمركز الخليج للأبحاث
Gulf Research Center Dialogue Lab

أوراق ثقافية

المروية العربية وتفكيك المفاهيم الغربية
قراءة في كتاب
«أمة على رسلها: تأملات من بلاد العرب»

لصاحبة السمو الملكي الأميرة مها بنت محمد الفيصل

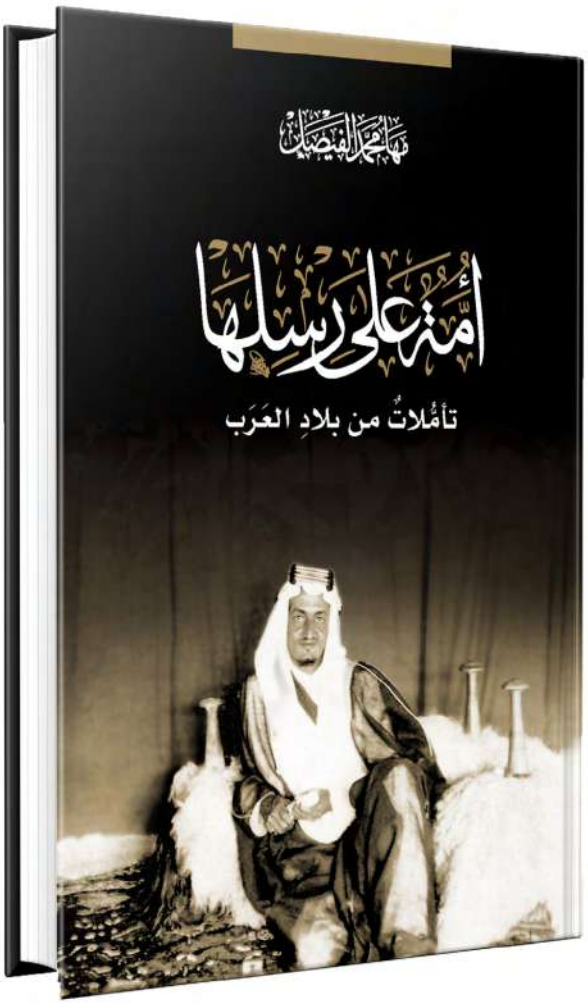

قراءة
الزبير الأنصاري

مراجعة وتعليق
د. زيد بن علي الفضيل

نوفمبر – 2025

في كلمته الافتتاحية لأيام المروية العربية التي أطلقها مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، أشار **الأمير تركي الفيصل** إلى مركزية الجزيرة العربية في حركة البناء المعرفي للثقافة العربية بوجه عام، وأهمية أن يسلط الباحثون الضوء على ذلك في الوقت الراهن، داعيا المتخصصين إلى تكثيف دراساتهم الإنسانية لبيان الدور المحوري لشبه الجزيرة العربية زمانا ومكانا وإنسانا في خريطة التطور الحضاري منذ ابتداء العصور التاريخية في الألف الثالث قبل الميلاد وصولا إلى اليوم.

في هذا السياق فمن المؤسف اختزال المجتمع الغربي لمفهوم الحضارة في العصر الحديث، متناسين الدور المحوري لعديد من الشعوب في مسيرة قطار الحضارة، وبخاصة شعوب الشرق الذين كان لهم الفضل في صهر كثير من المفاهيم الفلسفية في بوتقة واحدة والتي أنتجت الكثير من مظاهر الحضارة وتجلياتها، وحتما كان من أولئك العرب (مسلمهم ومسيحيهم) الذين أثروا المكتبة العالمية بالكثير من النفائس العلمية في وقت كان المجتمع الأوروبي غارق في ظلامه الدامس.

ثم وحين تلامس الإنسان الأوروبي مع الحضارة العربية الإسلامية عبر الأندلس ومملكة صقلية وحال احتلال الفرنجة بيت المقدس، والتي كان لها الفضل في صهر مختلف الحضارات المشرقية بالحضارة اليونانية ومزجها في بوتقة واحدة، ثم إنتاجها في سياق فريد من نوعه مادة ومعنى، شكلا ومضمونا؛ حين ذلك بدأ المجتمع الأوروبي في تشرب مفاهيم قيمية ومعرفية ذات بعد فلسفي أضفى على حياتهم معنى آخر، وأسهم في ترقية نفوسهم وتهذيبها معرفيا بالشكل الذي أوصلهم إلى ما هم عليه اليوم من تطور ورقي.

قراءة في كتاب «أمة على رسلها: تأملات من بلاد العرب»

كان ذلك بعض حديث جانبي مع سمو الأميرة مها الفيصل والتي لفت نظري عمق بعدها الفلسفي في حديثها حول المروية العربية حيث صنفت في ذلك كتابا فريدا في مضمونه وغاياته وسمته باسم «أمة على رسلها: تأملات من بلاد العرب»، والذي ناقشت فيه مصطلح «الحضارة» بتبصر لمعناه، وفهم لدوره كمنطلق لتقييم البلاد والعباد، مع تأكيدها إلى أن «مفهوم الحضارة قد ابتدع في حقبة التنوير الغربي كمساعد لفهم العالم من منظور غربي تقدمي لاديني، بحيث أصبح للحضارة مفهومها الخاص المعاكس للمفاهيم الدينية، إذ كلما خفتَ نبراس الدين اشتعل وهج الحضارة وتعاظمت أهميتها لتصبح وفق هذا المفهوم المادي غاية تسعى إليها البشرية، ومعيارا تُصوب نحوه الآمال وفق التمثل الأوروبي للتمدن».

وواقع الحال فيمكن فهم منطلقها المعرفي منهجيا، المستند في تكوينه إلى منظومتها الفكرية المؤمنة بدور الحضارة العربية في دعم وتطور مسار قطار الحضارة العالمي، بعيدا عن محاولة الذهن الغربي المادي لاختطاف مفهوم الحضارة وتغيير مجراه الفلسفي، وهو ما لم تستهدفه الحضارات المشرقية القديمة، ولذلك سار القطار الحضاري بنمو تراكمي مثَّل العرب الأوائل فيه جزءا أصيلا من تكوينه ومساره، جراء تموضعهم الجغرافي الاستراتيجي مميز الذي شكَّل نقطة اتصال بين مختلف تلك الحضارات، مما أضفى على الإنسان العربي سمة حضارية خاصة تمثلت في منظومة قيمه العالية، وذهنه المعرفي السليم، الذي جعل منه لبنة مناسبة لظهور آخر الأنبياء والرسل، ويؤكد ذلك قول النبي الأكرم في الحديث الصحيح "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، وحتما فالأخلاق النبيلة أعلى درجات التحضر والرقي، وهي التي سعى لبلوغها علماء عصر الأنوار والفلاسفة الغربيون بوجه عام.

على أن العرب الأوائل قد أبدعوا في عديد من المعارف الإنسانية قبل غيرهم، ودونا عن غيرهم، حيث أظهرت الاكتشافات نبوغهم المبكر في علم الفلك، وبناءهم لمراصد دقيقة تعود إلى الألف الأول قبل الميلاد، كما كانوا خبراء في علم النجوم وأنوائها بشكل مذهل، بل إنهم قد تميزوا بمهارة إجادة علم القيافة دونا عن غيرهم، وكذلك علم الريافة وهو معرفة استنباط الماء من الأرض، وغير ذلك من العلوم والمعارف التي تفرد العرب فيها من قبل.

٢

ففي هذا السياق يأتي كتاب "أمة على رسلها: تأملات من بلاد العرب" ليسلط الضوء على كثير من أنساق الذهن الغربي وسياقات مجتمعه الثقافي، الذي استساغ في بعض جوانبه العنف بوصفه سلوكا مجتمعيا، وتمثل ذلك عبر حروبه المتوحشة سابقا، والتي كان يمكن النظر إليها بوصفها سمة بشرية يشترك فيها جميع الناس، كما هو التسامح مثلا؛ لكن قراءة فصل "ثقافة مرتبكة" في كتاب "أمة على رسلها" يقدم تفسيرا فلسفيا ثقافيا لنسق الثقافة الغربية المتوحشة إزاء الآخر، حيث ووفقا لما كتبه القس فولتشر عن تاريخ الحروب الصليبية وكان شاهدا عليها، عمد الصليبيون إلى أكل جثث المسلمين مطبوخة ونيئة على حد سواء، مع الإشارة إلى أن ذلك لم يحدث من قبل ممالك الكنائس الشرقية التي وبتعدد الحروب بينهم وبين المسلمين إلا أنهم لم يعمدوا إلى أكل لحم بشر عربي أو رومي أيضا، بل وحتى المغول الذين ومع استيلاءهم بهمجية لكثير من البقاع شرقا وغربا، فإنهم لم يقوموا بهذا السلوك المتوحش أبدا.

لقد جاءت استشهادات المؤلفة حول هذا السياق في كتابها المهم في سبيل مواجهة الذهن الغربي الإقصائي للعرب ومحاولتهم تكريس صورة نمطية عنهم ليست صحيحة، وأرادت الكاتبة أن تذكرهم بماضيهم المخجل، الذي أرادوا نسيانه وتجاوزه في ظل حضارتهم الحديثة

٣

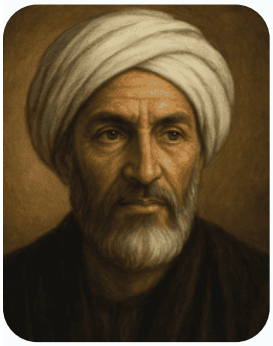

في هذا السياق أشير إلى دور الحضارة العربية في التأسيس لعلم التاريخ وعلم الاجتماع العمراني، والذي يوثق لملامح تطور الحضارة بصورة منهجية بعيدا عن أي زيف أو تزوير؛ ويعتبر العلامة العربي المسلم **عبد الرحمن بن خلدون** المتوفى سنة ٨٠٨هـ الموافق ١٤٠٦م بنظرياته المشهورة التي ضمنها كتابيه (المقدمة، والتاريخ "المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر")، المؤسس الأول لهذا المنهج القائم على الدراسة والمقارنة في مختلف الأسباب والدواعي الاجتماعية، والاقتصادية، إبان

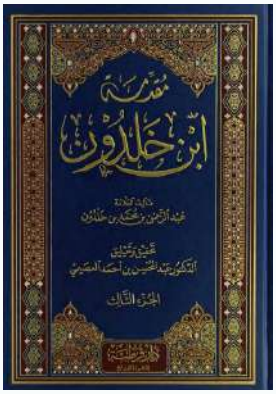

دراسة الحدث التاريخي، حيث عمل على مناقشة ما سجلته المصادر من خزعبلات وأساطير منتهيا إلى رفضها عقلا، واعتبارها من المبالغات التي يميل إليها الإنسان بطبيعته، كما اهتم بدراسة تأثير العوامل الجغرافية والاقتصادية على المجتمعات، إضافة إلى أنه كان من أوائل من بيّن أهمية الوثيقة كمصدر من مصادر التاريخ الرئيسية، واعتبر ابن خلدون أن الدولة في نشأتها وتطورها ومن ثم هرمها كالإنسان في نشأته وقوته ومن ثم هرمه، وهو ما ردده لاحقا بعض علماء مدرسة التفسير الحضاري.

ثم توالى من بعده المؤرخون الأوربيون، الذين شكلت دراساتهم الأساس المنهجي لمدارس التاريخ الحديثة، الرافضة لما كان سائدا في الماضي من القبول بمختلف الروايات دون تمحيص، والداعية إلى الرجوع بالمتغير التاريخي، سلبا كان أم إيجابا، إلى المشيئة الغيبية، ودعوا إلى تحكيم العقل في تلك الروايات، ودراستها ضمن حدودها المتوائمة مع كوامن النفس البشرية، ونتائج المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية في أية أمة، وهو ما وضح جليا بعد ذلك فيما عرف بالتفسير العقلي، ومن ثم التفسير المادي، إضافة إلى التفسير الحضاري للتاريخ.

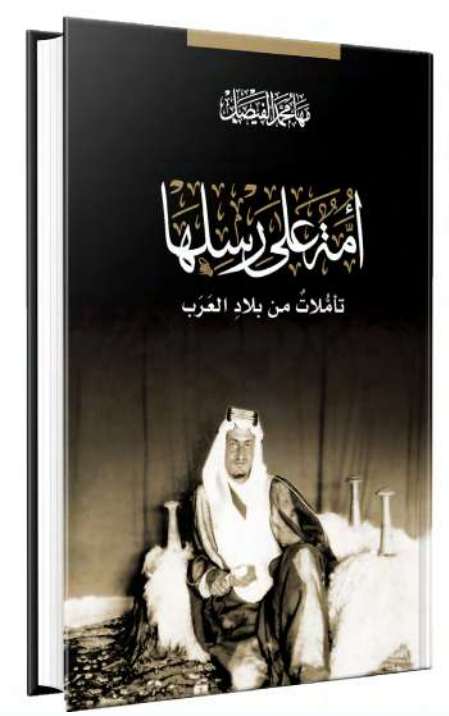

في هذا السياق التنويري يأتي كتاب «أمة على رسلها: تأملات من بلاد العرب» لمؤلفته الأميرة مها بنت محمد الفيصل ليناقش بموضوعية التأثير الإيجابي للحقبة العربية في سياق تطور سير ومسيرة قطار الحضارة الإنساني، وبخاصة وأن مؤلفته قد استوعبت بوعي مختلف، ما طرحه فلاسفة عهد الأنوار الأوربيين من أفكار ورؤى، فكان أن جاء كتابها قويا ومتماسكا، عميقا في محتواه الفكري، متجذرا في مضمونه الدلالي، والذي كشف لنا عن باحثة مفكرة جديرة بالاهتمام، وحقيقةً بأن تتصدر المشهد بوصفها باحثة جادة، بمنأى عن مكانتها الأسرية، وبعيدا عن وظيفتها المركزية كأمين عام لمؤسسة بحثية هي من أكبر المؤسسات في الشرق الأوسط إجمالا، ويكفي أنها تصدر جائزة عالمية بات لها وجودها في الذهن العلمي العالمي، وأعني بها «جائزة الملك فيصل العالمية».

٤

وهكذا فيعدُّ كتاب "أمة على رسلها: تأملات من بلاد العرب" امتدادًا للأطروحات الفكرية في العالمين العربي والإسلامي التي سعت إلى التعاطي مع أسئلة النهضة والهيمنة، وعلاقتها بالتمثيل الثقافي للأمم والشعوب. بحثا عن إجابة مقنعة لها، وكان من أجل ذلك أن تمحور الكتاب، الصادر عن مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية، في مضمونه ودلالته بين حقلين فكريين متداخلين ينصب اهتمامهما على دراسة العلاقة الإشكالية بين الشرق والغرب، وتجليات هذه العلاقة في الخطابات المعرفية:

الحقل الأول "الاستغراب" بمفهومه عند

مفكرين عرب مثل **أنور عبد الملك**، أي الحقل المعرفي الذي يهدف كما يقول ميجان الرويلي وسعد البازعي في كتابهما "دليل الناقد الأدبي" إلى "دراسة الغرب والحضارة الغربية من خارجها، ممَّا يجعله حقلًا مقابلًا للاستشراق الذي مارسه الغربيون في دراسة الشرق من زوايا مختلفة". ويطمح هذا الحقل إلى تحويل الغرب إلى موضوع للدراسة، مع التأكيد في هذه الدراسة على قضايا مثل الخصوصية والاختلاف الحضاري.

وبذلك فيمثِّل كتاب الفيصل إسهامًا مهمًا في هذا الحقل، فهو كما يقول الناشر: "حلقة من حلقات الاستشراق المضاد... كتبت بقلم قارئة فاحصة للتاريخ الأوروبي والكنسي، عارفة بتاريخ الأفكار والتيارات الإيديولوجية المتصارعة".

الحقل الثاني: "الاستشراق" بمفهومه عند

إدوارد سعيد (١٩٣٥-٢٠٠٣م)، أي الحقل الذي يُعنى بتفكيك الكتابات الغربية عن الشرق، ودراستها بوصفها أسلوبًا من التفكير المبني على تمييز وجودي ومعرفي بين الغرب الشرق، مع هدف، مضمر أو معلن، وهو الهيمنة على الشرق وإعادة تنظيمه والتسلُّط عليه.

ويمكن القول إنَّ المؤلفة تواصل في كتابها هذا المسعى من خلال تقديم قراءة معمقة للتصورات الغربية عن الشرق، وبيان الاختلالات المنهجية والتحيزات التاريخية التي قامت عليها

هذه التصورات. ومع ذلك فإنَّ أطروحة الأميرة مها تتميَّز عن أطروحة إدوارد سعيد من جانبين:

الجانب الأول/ أنَّ أطروحة سعيد وإنْ سعت إلى كشف التحيزات في الخطاب الاستشراقي، إلا أنَّها ليست، كما أكد أكثر من مرة، دفاعًا عن الإسلام والعرب؛ أمَّا أطروحة الأميرة مها فهي دفاع صريح عن الإسلام والثقافة العربية وإثبات تفوقهما الروحي والقيمي على الحضارة الغربية الحديثة.

الجانب الثاني/ في الخلفيات والمرجعيات الفكرية، فإدوارد سعيد يعتمد على مرجعيات غربية خالصة، ولا سيما مفهوم الخطاب عند المفكر الفرنسي ميشيل فوكو (١٩٨٤-١٩٢٦م)، ومفهوم "الهيمنة" عند الفيلسوف الإيطالي أنطونيو غرامشي (١٩٣٧-١٨٩١م)، أمَّا الأميرة مها فتتكئ على مرجعيات إسلامية وعربية مع الاستئناس بالأطروحات الغربية التي تؤكد مركزية الإيمان والقيم في الحياة الإنسانية.

وانطلاقًا من هذين الحقلين، عملت المؤلفة على تتبع إشكالات العلاقة بين الشرق والغرب، أو بين الحضارتين الغربية الأوروبية من جانب والإسلامية العربية من جانب آخر، وذلك وفقًا لمحورين كبيرين، تمثل الأول في الاختلالات البنيوية في الحضارة الغربية الحديثة، في حين تمثل الثاني في محاولات التعتيم على الحضارة العربية. وسنعرض هنا بإيجاز لهذين المحورين وأبرز القضايا التي تناولتها المؤلفة في كل محور، دون الدخول في التفاصيل.

قراءة في كتاب «أمة على رسلها: تأملات من بلاد العرب»

٥

المحور الأول: الاختلالات البنيوية في الحضارة الغربية الحديثة:

يُركز هذا المحور على الكشف عن الاختلالات العميقة في الحضارة الغربية الحديثة منذ تشكلها مع بدايات عصر النهضة حتى الصورة التي انتهت إليه الآن، مع مساءلة مفهوم الحضارة نفسه لا بهدف إلغائه، وإنما للتنبيه، كما تقول المؤلفة، على مواطن قصوره، وأنَّه لا يصلح بديلًا عن الأديان.

في هذا السياق تشير المؤلفة إلى أنَّ مصطلح "الحضارة" الذي يسعى الكتاب إلى تبصُّر معناه، هو فكرة حديثة ابتدعت في حقبة التنوير كمعين لفهم العالم بُعيد زمن الاكتشافات الكبرى، من منطلق منظور غربي تقدمي لا ديني. وفي هذا الصدد تشير الفيصل إلى جملة من القضايا البارزة، نشير إلى طرف منها:

أولا/ ابتداع التصور المادي للإنسان:

عملت الحضارة الغربية الحديثة على فصل الإنسان الغربي عن مُثلِه ومرجعياته الروحية والقيمية وتكريس مفهوم مادي لكينونته، مع غرس هذا المفهوم في المؤسسات الكبرى السياسية والتعليمية، الأمر الذي أدى إلى تصور جديد لطبيعة الأسرة، وإلى "الميوعة في تحديد الجنس البشري ذاته ليخرج تمامًا عن ثنائية المرأة والرجل، بل وصل به الأمر إلى إلغاء فكرة المرأة ذاتها".

هذا الهدم للمرجعيات امتدَّ إلى فكرة الأبوين والأسرة التقليدية، فقد كان هدم فكرة الأب ضروريًا في عملية الهدم الشامل للمرجعيات؛ لأنَّ "وجود الأبوين يمكن من استيعاب وجود مرجعيات تراتبية خارجة عن الذات وأهوائها".

وفي مكان الأخلاق الفاضلة التي تعارف الناس عليها مثل الكرم والشجاعة والمرؤوة، عملت الحضارة الغربية على إيجاد نوع جديد من القيم والأفكار النخبوية يسميها بعض المفكرين (القناعات المُرفهة) "luxury beliefs"، أي تلك القيم الضبابية التي تتركز حول قضايا مثل العمل المجتمعي والبيئة ونحوها.

وتمثل أيديولوجيات العولمة حلقة أخرى من حلقات الهدم والتفتيت للمرجعيات، كما امتدَّت إلى فكرة الحدود ذاتها، بما في ذلك المحددات البيولوجية للبشر، والذي أدَّى في نهاية المطاف "إلى ما نراه حاصلًا في ظاهرة المتحولين جنسيًا الذين يمثلون الرمز الأوضح لفكرة العولمة ومبدأها الحاكم، أي تجاوز الحدود أيًا كانت، بما فيها الحدود البيولوجية، لأنَّهم يقدمون أجسادهم التي تقطع وتسلخ قرابين لهذا المبدأ".

والغاية من كل هذا التفتيت هو القضاء على "فطرة الإنسان وذاته"، وذلك في سبيل "صياغة الإنسان الجديد". وهنا تصبح المشتركات العامة مثل: الأسرة وكذلك القبيلة والوطن عدوًا لا تريد هذه الأيديولوجيات المادية التعايش معها، بل تريد أنْ تحل محله، "كي تصبح هي المشكِّل الأوحد للإنسان، لا يشاطرها في ذلك لا دين ولا أسرة أو قبيلة أو حتى واقع بيولوجي".

ثانيًا: الفرد السيكولوجي و"تأليه الذات":

مع تفكيك المرجعيات والأطر العامة المشتركة للوجود الإنساني كالدين والأسرة والأخلاق الفاضلة، يصبح "الفرد" هو محور هذا الوجود، وليس أي فرد وإنما "الفرد السيكولوجي" الغارق في ذاته، وذلك في ظل ما تشهده الحضارة الغربية المعاصرة من التضخم الكبير لفكرة "الحرية الفردية" مع التركيز على فكرة الحقوق وليس الواجبات.

وتشير الأميرة مها في هذا الصدد إلى "تحول الفردية إلى منهج للتفكير من أهم سماته وأخطرها التغافل الكامل عن الكل الجامع والتركيز على العناصر المتجزئة، بالإضافة إلى إهمال الآليات التي تعمل على تآلف وترابط أفراد المجتمع بعضهم مع بعض وتلك التي تساعد على اندماج الفرد في مجتمعه". وفي تحقيب تاريخي شامل، ترصد المؤلفة مراحل نشأة فكرة الفردية وتطورها في الحضارة الغربية حتى انتهت إلى واقعها الحالي، مشيرة على وجه التحديد إلى المراحل الآتية في الفكر الغربي:

١

ظهرت بواكير فكرة الفردية عندما تحدث القس **وليم الأوكامي** (١٢٧٨-١٣٤٩م) في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي عن عدم وجود حقائق جامعة (جوهر جامع) إلا كأسماء وتصورات عقلية لا أكثر، زاعمًا أنَّ الوجود الحقيقي يكمن في الأفراد فقط، أي أنَّ الحقيقة لا توجد في ذلك الكل الجامع، ولكنها مجرد حقائق منفصلة متفردة، ما أدَّى، بحسب الفيصل، إلى "نشأة ابستمولوجيا منغلقة، وتفكيك المفاهيم الجامعة كالأسرة والأخلاق بل والجنس البيولوجي ذاته"

٢

بعد ذلك جاء الفيلسوف الفرنسي **رينيه ديكارت** (١٥٩٦-١٦٥٠م) الذي جعل العقل موطن الكينونة، وهذا يعني تجزئة الإنسان وفصل عقله وتفكيره عن جسده. مشيرة إلى أنه قد كان للكوجيتو الديكارتي "أنا أفكر إذًا أنا موجود" أثره الخطير في تطور فكرة

الفردية الحديثة، لأنَّ ديكارت، جعل من العامل السيكولوجي "جوهر اليقين والمرجعية العليا لتفكير الإنسان". وترى الفيصل أنَّ هذه المقولة كانت لها عواقب لم يكن ليتوقَّعها ديكارت نفسه، ومنها ظاهرة المتحولين جنسيًا، فلو فكر الرجل أنَّه في واقع الأمر أنثى في جسد ذكر، فالعائق البيولوجي هنا ليس ذا أهمية ما دام مناط الحقيقة فكري سيكولوجي.

٣

بعد ذلك ظهر فيلسوف التنوير الفرنسي **جان جاك روسو** (١٧١٢-١٧٧٨م) الذي اعتبر أنَّ المجتمع والأسرة يمثلان عائقًا أمام التعبير عن حقيقة الذات، بل هما عاملا إفساد لطبيعة الفرد. ونتيجة لهذه الفكرة "أصبح كل ما يفكر فيه الإنسان بمنزلة حق وجودي له، وإن اصطدم مع محيطه والمبادئ الحاكمة لمجتمعه". ومن الآثار الخطيرة لهذه الفكرة عند روسو أنَّ المؤسسات التي تُعْنَى بصقل النفس الإنسانية وتثقيفها تحوَّلت إلى مجرَّد أماكن للتعبير عن الذات التي باتت "المرجع الأعلى للوجود".

٤

واستمرَّ تطور "الفردية" باتجاه المزيد من التفكك مع الفيلسوف الألماني **هيغل** (١٧٧٠-١٨٣٠م) الذي جعل من التجاذبات الفكرية مناطَ الحقيقة والمشكِّل للواقع وتحدَّث عن "العقل الحر"، وهذا بحد ذاته يوحي كما ترى المؤلفة، بإمكانية التشكل الدائم، فلا ثوابت أو ضوابط.

٥

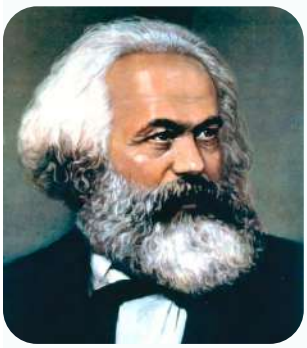

ويمثل الفيلسوف الألماني **كارل ماركس** (١٨١٨-١٨٨٣م) حلقة أخرى في تطور فكرة "الفردية"، ذلك أنه سيَّس كلَّ شيء، وجعل المادة هي المُشكِّل للوجود، معتبرًا أنَّ المبدأ الحاكم للمجتمع يكمن في الصراع، ومن ثم أصبح الفرد كائناً سياسيًا اقتصاديًا أولًا وأخيرًا. والعجيب أنَّه بعد كل هذا التأليه للذات جرَّد ماركس الفرد تمامًا من أي مقدرة أمام تلك الحتمية التاريخية والقوى الاقتصادية.

٦

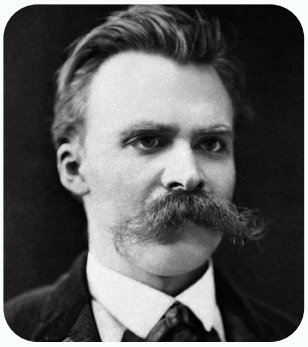

ثمَّ جاء الفيلسوف الألماني **فريدريك نيتشة** (١٨٤٤-١٩٠٠م) الذي أعلن موت الرب كمرجع خارجي للبشرية، ممَّا استلزم منطقيًا، وكما يقول هو "التأليه للذات"، ومن ثمَّ فإنَّ قدر الإنسان هو في صناعة ذاته ومحيطه.

٧

وأخيرًا ظهر عالم النفس النمساوي **سيغموند فرويد** (١٨٥٦-١٩٣٩م) الذي اكتشف اللاشعور، وجعل الجنسَ مناط الإنسانية، فأصبح الرغبات الجنسية وتفاعلها مع اللاشعور هي المعبِّر عن حقيقة الفرد، أي، كما تؤكد المؤلفة، "أصبح المحرك للإنسان قوى غيبية غير عقلانية أغلبها سلبيٌّ، منشؤها كبت الرغبات الجنسية، وهو بذلك ذهب أبعد من ماركس نفسه، فأصبح الفرد مجرَّدًا من قدراته أمام شيء غيبي يدعى اللاشعور". وهكذا يصبح لهذا التحوُّل من المشترك الجمعي إلى "الفرد السيكولوجي" دلالته الرمزية في الحضارة الغربية، كما ترى المؤلفة، ذلك أنَّ "الفرد السيكولوجي" يستدعي الحلَّ العلاجي في حياته، وليس الديني، وهذا يستلزم تغييبًا كاملًا للدين ومُثُله في التعاطي مع المشكلات النفسية والروحية للإنسان الغربي المعاصر، وفي هذا الصدد ينبغي أنْ تُفْهَم أيديولوجية فرويد العلاجية والنظريات النفسية التي تتبنى عليها.

وبذلك ووفقا لرأي المؤلفة، فقد انتهت هذه التدابير اليوم إلى أنَّ "مناط الذات هو الجنس، والجنس له كينونة سياسية"، فالفرد اليوم في المجتمعات الغربية بات يُعرِّف نفسه بحسب ميوله الجنسية!

ثالثًا: هيمنة الثقافة الميتة:

هذه التنحية الكلية للمرجعيات التقليدية، وطغيان "الفرد السيكولوجي" بمحدداته الجنسية والمادية، أدَّى إلى هيمنه ما تسميه الأميرة مها الفيصل "الثقافة الميتة" المبنية على الشك والارتياب والعدمية، وهذه الثقافة الميتة هي نتيجة حتمية لتهميش الدين والقيم الإنسانية التي ترتبط بممارسات ومفاهيم ومُثُل متجذرة عبر القرون.

في هذا الصدد، تنتقد الفيصل هيمنة مفهوم «الثقافة» في الفكر الغربي الحديث على حساب المفاهيم العريقة مثل الدين والأخلاق، مؤكدة أنَّ «الثقافة وابنتها المزعومة الحضارة لا يمكن لهما أنْ يمثلا غاية أو قيمة في ذاتهما. بل وجودهما إشارة إلى شيء أبعد منهما يُخْدَم مِنْ قبلهما، إمَّا دين سماوي أو أيديولوجيا بشرية».

في ظل هذا الانفصال بين الثقافة والدين وخضوع الأولى لأيديولوجيات مادية عدمية لا مرتكز لها أو مرجع وراء الذات وأهوائها، أصبحت الثقافةُ نفسها فعلًا عدميًا، ومن ثمَّ فإنَّ "المتدبر لفعل الثقافة الحديثة يجد وكأنَّها تكتسب حيويتها من كل ما هو مضاد للثقافة التقليدية وصادم لها، كما يظهر في كثير من النتاج الإبداعي الحديث".

وإذا أردنا تشخيص هذه الثقافة الميتة من خلال الإحالة إليها ببعض منتجاتها وما تركته من أساطير ورموز شعبية، فإنَّه بإمكاننا اعتبار "قصة الزومبي"، كما تقول المؤلفة استنادًا إلى مفكرين غربيين، "الأسطورة الوحيدة التي أنتجتها الحداثة، وهي تمثل حالة ذلك الميت الحي، أو بالأحرى حالة اللامعنى القاتلة والعقيمة التي تعتاش على التهام الحياة من شيء حي خارج عنها، مع استحالة إعادة الحياة إليها". إنَّ الزومبي يصور بدقة هذه الثقافة الغربية المعاصرة في سماتها الرئيسية الثلاث: اللاوعي، واللاعقلانية، والافتقار إلى الجذور.

رابعًا: التحرُّر كحالة ثورية دائمة:

في ظل هذه الثقافة الميتة والعدمية تصبح المحاولات الدؤوب والمنهجية للمحو الثقافي الساحق خدمة لأيديولوجيا مادية لا دينية سمة ملازمة للحضارة المادية الحديثة لا نجدها "في المجتمعات التقليدية المتصالحة مع نفسها"، ويرتبط هذا المحو من وجهة نظر المؤلفة في الثقافة المادية الحديثة بفكرة "التحرر" العدمي الذي لا يتقيد بشيء.

وبالمقارنة مع ثقافات أخرى، نجد أنَّ العرب قد عرفوا منذ عصر ما قبل الإسلام كلمة "الحر"، بمعنى خلاص النفس من قيود "الرذائل" بالإضافة إلى التحرر الفعلي من ذل الانتساب إلى العبودية، أمَّا التحرر كحالة ثورية دائمة فهي غاية يصعب إشباعها.

ومع هذا التحرر المنفلت، أصبح التحوُّل الجنسي أفقَ التحرر الجديد الذي هو في واقع الأمر تحرُّر من قيود الطبيعة ذاتها، ذلك أنَّه في ثقافة تؤله الذات، كما تقول الأميرة مها الفيصل، "يمثل التبديل لخلق الله تصورًا بائسًا لإعادة خلق الإنسان لذاته عن طريق اختيار جسد مغاير لما خلق فيه".

وتؤكد الفيصل أنَّ المسيرة الفكرية الشاقة للغرب الحديث هي في "محاولة إيجاد ذلك التوازن الذي فُقِد بفقدان الدين كوازن ومنطلق حضاري إن جاز التعبير، ما استلزم بناء أسس ثم ضرورة هدمها في سبيل بناء أسس معدلة، وما زلنا في الإرهاصات المزلزلة لهذه التدابير".

٦

المحور الثاني: محاولات التعتيم على الحضارة العربية:

هذه الاختلالات البنيوية والعميقة في الحضارة الغربية كان لها انعكاساتها السلبية على الحضارة العربية والإسلامية، التي تختلف في طبيعتها وسياقاتها عن الحضارة الغربية، فبينما تمضي الأخيرة وفقًا لمفهوم "التقدم" الذي كرسته الداروينية الاجتماعية عند هربرت سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣م) ومفهومه عن "البقاء للأصلح"، ليصبح مفهوم الزمن في التصور الغربي خطيًا لا يعترف إلا بالحضارة المتأخرة، في حين أنَّ العرب، كما تقول الفيصل، أمة مطمئنة أو أمة على رِسلها تسير وفقًا لقيمها الجوهرية الثابتة ومبادئها الروحية الراسخة.

وتظهر هذه الانعكاسات السلبية للحضارة الغربية على الحضارة العربية في مستويين: أولهما هو ما تسميه الفيصل باسم "التجريف الثقافي"، أي خلخلة الأسس الثابتة للحضارة العربية وإحلال مفاهيم وتصورات غربية مكانها. وثانيهما تشويه تاريخ الحضارة العربية المزدهر والطعن في إسهاماتها الكبيرة للبشرية، ومحاولة "سرقة" إنجازاتها.

كما يمكن ملاحظة الاختلاف الزمني في تركيزهما الزمني لهذين المستويين، فالأول يستهدف الحضارة العربية في واقعها المعاصر، والثاني يستهدفها في عمقها التاريخي. ومع هذا الاختلاف، إلا أنهما يتآزران في خدمة غاية واحدة وهي تنحية هذه الحضارة من مركزها في الوجدان العربي الإسلامي، إذْ من الواضح أنَّ سلب الحضارة العربية بريقها في الماضي، والتشكيك في إسهاماتها الكبيرة في بناء الحضارة الإنسانية، يُسهِّل صرف أبنائها عنها، وتوجيههم إلى مصادر بديلة، غربية في الغالب الأعم.

٧

في هذا الإطار سنتناول باختصار كبير لأبرز ما أوردته المؤلفة من قضايا متعلقة بهذين المستويين.

المستوى الأول: التجريف الثقافي:

مع زعزعة الحضارة الغربية الحديثة لمرجعياتها سعت أيضًا إلى هدم المرجعيات التقليدية للمجتمعات العربية، مستغلة في ذلك تفوقها السياسي والعسكري والتقني. حيث تشير المؤلفة إلى "التجريف الثقافي الذي أحدثته الأيديولوجيات الغربية التي عصفت بأذهان النخب العربية ودعتها إلى تبني مشاريع فاشلة" لتنظيم أوضاع مجتمعاتها.

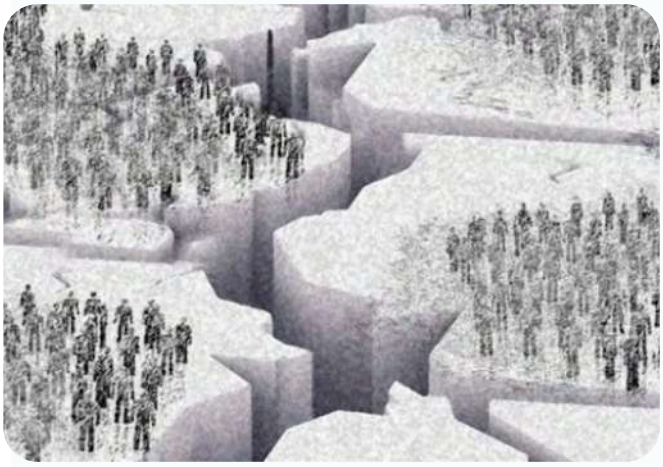

وبحسب الأميرة مها، فقد أدَّى هذا التجريف الثقافي إلى «هدم الحصانة المجتمعية التقليدية المتمثلة على سبيل المثال لا الحصر، في التجمعات الفطرية مثل: القبيلة الرشيدة، والأسرة الممتدة، وأنظمة الحكم التقليدية، بزعم محاربة الأبوية وغيرها من أواصر التوازن المجتمعي الطبيعي، حتى باتت كلمة الأبوية ذاتها صنوًا للتجبر والظلم!». كما نتج عن هذا التجريف أيضًا «هدم أو تهميش المؤسسات التقليدية الحافظة للمكون الديني الأخلاقي، بزعم التخلف والرجعية».

وهنا تُشدِّد الفيصل على أهمية المرجعيات التقليدية، وضرورة الحفاظ عليها للحفاظ على ما يرتبط بها من قيم أساسية لاستمرار الحضارة العربية، إضافة إلى استدامة استقرار المجتمعات وتماسكها، ذلك أنَّ من أسباب الدمار في كثير من الدول العربية، كما تقول المؤلفة، هو "تلك التجاذبات السياسية بل والجيوسياسية الكبرى" التي قضت على الحصانة الداخلية التي كانت توفرها هذه المرجعيات التقليدية. وترى الفيصل أنَّ "الحصانة الداخلية لتلك المجتمعات المنكوبة كان يمكن لها أن تمثل نوعًا من الحماية الذاتية التي تقيها بعضًا من تبعات التفتت الكامل للدولة الوستفالية المعاصرة".

في هذا الإطار فتنتقد المؤلفة مختلف التصورات النمطية المرتبطة بمفاهيم تقليدية مثل القبيلة، مؤكدة أنَّ القبيلة لا يقابلها التمدن، لأنَّ القبيلة شكل من أشكال التجمع البشري وهي أقرب إلى مفهوم الأسرة، كما أنها ليست مرادفة للبداوة.

وبحسب الفيصل، فإن القبيلة الرشيدة تمثل "منظومة من العلاقات الإنسانية والبيئية والسلطوية غاية في التعقيد"، وتقوم على الالتزام الداخلي بنسق أخلاقي موروث. ومع أنَّ القبيلة تقوم على نوع من التراتبية مثلها مثل أي نظام اجتماعي آخر، إلا أنَّ هذه التراتبية لا تمنع "التواصل المباشر بين وحدات القبيلة أدناها وأعلاها".

ومن الثوابت التي طالها التجريف "اللغة"، وذلك تبعًا لما طالها في المجتمعات الغربية من تحوُّل أدَّى بها إلى أن تصبح مجرد "مصطلحات بلاستيكية لا تعكس عمقًا ولا امتدادًا روحيًا". وتظهر أزمة اللغة في انحسار النص الشعري لمصلحة السردي، لأنَّ الشعر، وفق قول المؤلفة، "فيه ضبط كبير، بل وشغف لرصد معاني الكلمات، وهو مستوحى من أنساق ثقافية عتيقة محقوظة وحافظة"، لهذا السبب هناك سقوط للغة الشعر وتهميش لها وعدول إلى الرواية المتحررة من القيود الحاكمة للشعر، والتي تعبر عن "تلك الذات المنتفخة التي يتعبَّد عندها الإنسان الحديث".

وفي السياق العربي، نجد أنَّ للغة تميُّزها المستمد من إعجاز الوحي، الذي يُعطي الكلمة وجودًا وحياة

وروحًا، وهنا مكمن الحصانة المتمثلة فيما يعرف بلغات الوحي، والتي بفضلها قامت ما يطلق عليها الحضارات العريقة.

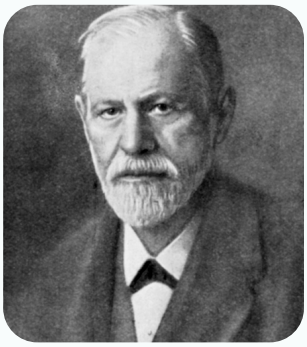

وينبه **نيل بوستمان** (٢٠٠٣-١٩٣١م) إلى أهمية البناء اللغوي في تشكل الرؤية الكونية للفرد، فيقول: "ما نعرفه عن اللغة يجعلنا نفهم أن التنوع في البناء اللغوي يحدث بموجبه تنوع في الرؤية الكونية". وتبني الفيصل على هذا المفهوم رؤيتها، مشددة على أنَّ "الحرمان من اللغة الأم وإهمالها هو خسارة فادحة لأي فرد أو جماعة، فهو بذلك يقطع الصلة بينه وبين أنساق فكرية بديعة وعبقريات متوارثة لا قبل له بتحصيلها إلا من خلال استبطان نبوغ اللغة الأم والاستئناس بها، فإن كانت اللغة الأم هي العربية، فأي خسارة بفقدانها".

إنَّ استهداف اللغة العربية هو في صميم هذا التجريف الثقافي الذي تعرضت له المجتمعات العربية والإسلامية، فقد كان الحلُّ الوحيد، كما تقول المؤلفة، لتقييد العقل العربي، ومن ثَمَّ الإبداع العربي الحقيقي، «كان في استدراج الصفوة الفكرية والمجتمعية للعمل على الهجرة إلى لسان فكري آخر، يضمن لهم حياة الغرباء بين مفردات كانت في يوم من الأيام الأنس والنجاة».

المستوى الثاني: تشويه تاريخ الحضارة العربية:

سعى كثير من مفكري الحضارة الغربية منذ عصر النهضة في القرن الرابع عشر الميلادي إلى الطعن في الحضارة العربية والإسلامية، ومحاولة الغض من إنجازاتها، وإسهاماتها العظيمة للبشرية. وبحسب الأميرة مها الفيصل، فقد أخذت هذه المساعي التشويهية أبعادًا مختلفة، نذكر منها هذه النماذج:

١- **الإسقاط على الحضارة العربية**، حيث تنتقد الفيصل الاتهامات الشائعة في الأدبيات الاستشراقية الغربية للحضارة العربية الإسلامية بالعنف والقتل باسم الدين، مؤكدة أنَّ هذه الاتهامات هي نوع من الإسقاط التاريخي، فالمسلمون لم يوجدوا تنظيمات قضائية تشريعية مثل تلك التي أطلق عليها اسم "محاكم التفتيش"، وإلا كيف نفسر بقاء كل هذه المذاهب والفرق الإسلامية والمسيحية المتنوعة وغيرها من ديانات حية في كنف بلاد العرب دون أن يمسسها شيء لأكثر من ألف وأربعمئة عام، إلى أن أتى العصر الحديث بأيديولوجياته الحداثية، وما يطلق عليه "الإسلام السياسي" بشقيه السني والشيعي الذي هو تجل حداثي محض في أبشع صوره.

٢- **الانتقام من الحضارة العربية**، حيث عمل مفكرو النهضة الأوروبية مثل بترارك (١٣٠٤-١٣٧٤م) ضمن ثنائية فكرية هي أشبه ما تكون بـ"الفصام التأويلي"، ذلك أنهم كانوا يؤمنون بالمسيحية في حياتهم اليومية، وفي الوقت نفسه، يستلهمون التراث الوثني الكلاسيكي كمرجع حضاري يُحتذى به.

وانطلاقًا من هذه الثنائية، اتخذوا موقفًا عدائيًا من الحضارة العربية، فبترارك، وعلى الرغم من تأثره بالثقافة العربية والشعر العربي، إلا أنه سعى إلى تحريض أوروبا للانتقام من الحضارة العربية التي رأى أنها السبب في انهيار الحضارة الرومانية، على الرغم من أنَّ من أسقط روما إنما هم البرابرة الجرمان، أي الأسلاف القدماء لهذه الشعوب الأوروبية نفسها التي يسعى بترارك إلى تأليبها وحشدها لمنازلة العرب وقتالهم!

٣- **الجحود الحضاري وبناء تاريخ بديل للنهضة الأوروبية**، حيث حاول مفكرو النهضة، واستمرارًا لهذا الموقف العدائي تجاه الحضارة العربية، إخراج العرب تمامًا من أي مسار حضاري للغرب سواءً على المستوى الفكري والعلمي أو على المستوى الديني.فعلى المستوى

- العلمي والفكري، كانت هذه القضية تمثل، تحديًا كبيرًا للغرب، إبَّان عصر النهضة، "فقد مثل الإرث الإغريقي إشكالًا لكونه قد وصلهم على أيدي أساتذة عرب في جامعات عربية، ومن خلال الترجمات العربية والكتب العربية، بالإضافة إلى هيمنة الثقافة العربية على كل من الأندلس وصقلية اللتين مثلتا أعلى منائر الإشعاع العلمي والثقافي في أوروبا لقرون". ولتنحية هذا المسار التاريخي وتجاوزه، فقد سعى بعض مفكري النهضة، مثل بترارك، إلى الاقتصار على إرث الرومان، والحط من التراث الإغريقي لأنَّ الأوروبيين قد عرفوه بفضل العرب!

ثمَّ بعد سقوط القسطنطينية وسيطرة العثمانيين عليها في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، فرَّ علماء الإغريق بكتبهم إلى أوروبا، فأعيد تشكيل سردية النهضة ومسارها ليكون من بيزنطة مباشرة إلى أوروبا "من دون الحاجة إلى دور عربي مهم وجوهري".

وتؤكد الأميرة مها الفيصل زيف هذه السردية، لأنَّ النهضة الأوروبية لم تبدأ مع سقوط القسطنطينية، وإنما قبل ذلك بقرون، وتحديدًا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر عندما قوي اتصال الأوروبيين بالعرب، واستمدوا منهم مرتكزات نهضتهم في العلوم والآداب والفلسفة والعمارة.

- وعلى المستوى الديني، سعى القس توما الأكويني (١٢٧٤-١٢٢٥م) إلى محاولة تخليص الفلسفة المسيحية من التأثر الكبير بالفلسفة العربية، وخاصة فلسفة ابن رشد.

وهكذا ومن خلال محاولة بناء تاريخ بديل للنهضة الأوروبية، فقد جحد الأوروبيون إسهامات الحضارة العربية التي كانت أساس نهضتهم. وتُنبِّه الفيصل إلى أنَّ المسألة لا تتعلَّق باللوم أو المظلومية، وإنما بتصحيح التاريخ وتنبيه الأمة العربية إلى هذا الواقع للعمل على تغييره، إذ تقول:

"وليس القصد هنا لومهم (أي الأوروبيين) لأنَّ الغرض من هذا الطرح ليس في عرض خطاب مظلومية... اللوم هو في واقع الأمر لوم أنفسنا، فكيف وصل الأمر إلى أنْ بات كثير من الشعوب التي كان للعرب فضل كبير عليها، تأنف اليوم من ذكر ذلك، على أقل اعتبار من باب الأمانة العلمية، بل وتبنَّى بعض من الفرس والترك الذين انساقوا وراء هذه الأطروحات منهج الجحود الحضاري الذي انتهجه الأوروبيون، مقلدين بذلك الغرب".

٤- عقدة النقص والتحريض على الاستعمار، ذلك أنَّ الشعوب الأوروبية استمدَّت حضارتها من مصادر خارجية وغريبة عنها عرقا وثقافة، فالدين من المصادر العبرانية والآرامية القديمة، والفلسفة والعلوم وأنظمة الحكم من الرومان والعرب والإغريق.

وبسبب هذا الشعور بالنقص تجاه الحضارة العربية، سعت أوروبا إلى تعويض هذا النقص وتلك التبعية الثقافية بالتحريض على استعمار موطن هذه الحضارة، وإخضاعها للهيمنة الغربية

وبحسب الفيصل، تُمثِّل مسألة النقص هذه واحدة من أهم الفروق بين الحضارة العربية والحضارة الأوروبية المسيحية، فبينما نشأت الأولى في جو من القوة تغلَّبت فيه على أقوى إمبراطوريتين: الفرس والروم، وامتدَّت شرقًا إلى الهند والصين حاملة معها دينًا عالميًا، فقد نشأت الثانية في

مناخ من الاستضعاف والتبعية الثقافية للإرث الروماني والهلينيستي. وهذه النشأة القائمة على التبعية طبع هذه الحضارة الأوروبية بعُقَدِ نقصٍ مترسخة، شوَّهت تفاعلها مع الثقافات الأخرى

٥- الطعن في العقل العربي وقدرته على الإبداع، وذلك إمَّا بإنكار الإسهامات العلمية والفلسفية للعرب جملةً، أو بنسبة هذه الإسهامات إلى بعض العناصر غير العربية في الحضارة الإسلامية كالفرس والروم ونحوهم.

وتُفنِّد المؤلفة الأميرة مها الفيصل هذا الادعاء، مؤكدة بالأدلة القاطعة أنَّ الطب والفلسفة وعلم الكيمياء وعلوم اللغة وعلم الفقه "كلها قد تأسَّست على عقول عربية". وبحسب رأيها فإنَّ أهمية تلك الأسماء العربية الكثيرة التي أسسَّت هذه العلوم كامن في أنَّ العرب "بإزالتهم العديد من الحدود السياسية قد خلقوا أحد أهم المتطلبات الأولى للحضارة، وهي: الوحدة السياسية الواسعة، ووفرة المؤسسات الاجتماعية والإطار السياسي"، كما أنهم جلبوا الدين، والوحدة اللغوية ممثلة في اللغة العربية.

أضف إلى ذلك فقد قاد العرب واحدة من أعظم حركات الترجمة في التاريخ، والمراد هنا، كما تنبه المؤلفة متعلق بـ"الترجمة بالمفهوم الأوسع الذي يشمل الاستعداد الذهني والثقافي الرحب فهمًا وانتقاءً وتصنيفًا"، الأمر الذي أتاح للبشرية تراثًا من الآداب والعلوم لم تكن لتطلع عليه لولا هذه الحركة.

8

أخيرا، وفي مواجهة هذه التحديات التي تفرضها الحضارة الغربية، باختلالاتها الداخلية ونفوذها السياسي والعسكري والتكنولوجي، على الوجود الثقافي العربي، تؤكد المؤلفة الأميرة مها الفيصل على ثلاثة أمور:

١) المرجعية الفكرية، وذلك بإيجاد مرجعية أصيلة ذات بناء أخلاقي روحي مقنع،وتجليات ثقافية حضارية رصينة،لكبح جماح نشوة التغلب للمادية الحديثة. ولا شكَّ فإنَّ هذه المرجعية الفكرية ترتكز في المقام الأول على الثقافة العربية الأصيلة بمنطلقاتها الدينية والتاريخية.

٢) تعزيز السردية أو المروية العربية بشأن الحضارة العربية في وجه هذه المحاولات لتشويهها، وذلك تفاديًا للوقوع فيما تسميه المؤلفة بـ"اليتم التاريخي"، أي حين تنعدم الأصول التاريخية فيسعى أبناء الحضارة إلى تبني أصل جديد، مع أنَّ حضارتهم أعرق وأقدم وأغنى.

٣) المقارعة في السياق التاريخي الحالي و"ليس لها إلا أن تكون فكرية أخلاقية، مع الاعتراف بالتراجع والضعف السياسي والعسكري والتقني، فمناط الإنسانية ليس في الآلة أو الغلبة المادية، والقاعدة القرآنية تقول: { إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} (آل عمران:١٤٠).

مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

www.ar.grc.net

Gulf Research Center Jeddah (Main office)

19 Rayat Alitihad Street
P.O. Box 2134
Jeddah 21451
Saudi Arabia
Tel: +966 12 6511999
Fax: +966 12 6531375
Email: info@grc.net

Gulf Research Center Riyadh

Unit FN11A
King Faisal Foundation
North Tower
King Fahd Branch Rd
Al Olaya Riyadh 12212
Saudi Arabia
Tel: +966 112112567
Email: info@grc.net

Gulf Research Center Foundation

Avenue de France 23
1202 Geneva
Switzerland
Tel: +41227162730
Email: info@grc.net

Gulf Research Centre Cambridge

University of Cambridge
Sidgwick Avenue,
Cambridge CB3 9DA
United Kingdom
Tel:+44-1223-760758
Fax:+44-1223-335110

Gulf Research Center Foundation Brussels

4th Floor
Avenue de
Cortenbergh 89
1000 Brussels
Belgium
grcb@grc.net
+32 2 251 41 64